"الدكتور أنطون"

يحمل اللقاء الذي يجمعنا هذا المساء ثلاثة أبعاد تميّز بها معهد الآداب الشّرقيّة منذ تأسيسه إلى يومنا هذا.

يقودنا البعد الأوّل إلى كوكبة الأعلام الذين طبعوا، طوال أكثر من قرن، ميادين اللغة العربيّة وآدابها، بمعارفهم، وتعاليمهم، ومؤلّفاتهم. والأب لويس بوزيه والدّكتور متري بولس من هؤلاء الأعلام الذين ساروا على خطى المؤسّسين، فالتزموا البحث الدّقيق واحترفوا التعليم المنفتح المتجدّد، بصبر وصمت، خدمةً للطلبة والقرّاء.

ويندرج البعد الثّاني في صميم رسالة المعهد المتمثّلة بنشر الأبحاث الرّائدة كتبًا ومقالات في سلاسل أو مجلاّت غدت، من طريق مقارباتها العلميّة الصارمة، ومحتوياتها الجديدة المتطوّرة، مراجع جوهريّة للطّلبة والباحثين محلّيًّا وإقليميًّا وعالميًّا. وما تقديم الحوليّات الأخيرة التي صدرت عن المعهد، وافتتاح مكتبة الدكتور متري بولس هذا المساء، إلاّ خير دليل على استمرار هذه الرّسالة بأصالتها وتجدّدها.

أمّا البعد الثّالث الذي يستوقفنا في حياة المعهد، فتميُّز الموارد البشريّة العاملة فيه من إداريين وموظّفين وتقنيّين، بالكفاءة والالتزام والأمانة. ومسار أنطون ملحم أسطع مثال عن هذه الفئة من الموظّفين الذين يُرسِخون في الأذهان صورة جامعة القديس كعائلة موحّدة وكمساحة حرّة يطيب فيها العمل والعطاء.

عرفته، وأنا طالب في المعهد، فنعمت، كغيري من الرفاق، بابتسامته واندفاعه وغيرته، ووجدت فيه، منذ سني الإجازة إلى مرحلة الدكتوراه، لا موظّفًا مستعدًّا باستمرار لخدمة الطلبة ومساعدتهم في معاملاتهم وملفّاتهم فحسب، بل صديقًا وأخًا لهم، يسهر عليهم، بل يوجّههم ويرشدهم.

ثمّ عرفته، وأنا أستاذ في المعهد، فاكتشفت كيف يكون الموظّف من أهل البيت، يحرص على موجوداته، ويتباهى بأفراد عائلته ويهبّ مدافعًا عنهم. واكتشفت كيف يعطي بدون حساب، فيبقى "حاضرًا ناضرًا" منتبهًا إلى كلّ شاردة وواردة، منبّهًا عابسًا، ومطمئنًا مبتسمًا. فمن من الزملاء لا يتذكّره في موسم الدورات والامتحانات والمناقشات، يملأ الأمكنة بحضوره، وكأنّي به في آنٍ الطالبُ والأستاذ العضو في لجنة المناقشة، والإداريُّ الحريص على أموال المعهد وعلى أنظمته، فيصرّ على قبض الأقساط المتبقّية من الطلاّب، وينبّه رؤساء لجان المناقشة إلى ضرورة ملء المحاضر وتوقيعها وتسليمها ضمن المهل القانونيّة ؟ فكيف لا نداعبه، والحال كهذه، فنلقّبه تحبّبًا "بالدكتور أنطون"؟

وعرفته أخيراً، وأنا عميد الكليّة فمدير المعهد بالوكالة، فعشت معه مرارة الانتقال إلى التقاعد، إذ كيف يتقاعد من أصبح المعهد قطعة من قلبه؟ ولم أكن أعلم أنّ الغصّة التي ملأت قلبي، لمّا أخبرته بضرورة التوقّف نهائيًّا عن العمل، كانت ستليها، عند مماته بعد أقلّ من سنتين، غصّة أشدّ لن تفارقني، غير أنّها في الوقت عينه ممزوجة بطمأنينة داخليّة تولّدها ذكرى رجل طيّب متواضع متفان في خدمة الآخرين، لا يمكن من عرفه إلاّ أن يعبّر له، ولو بعد غيابه، عن مشاعر الشكر والتقدير والإقرار بالجميل.

بيروت 8 اذار 2012

الدكتور جرجوره حردان

عميد كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة في جامعة القدّيس يوسف

كلمة البروفسور أهيف سنّو*

في ذكرى الأستاذ أنطون ملحم أمين السرّ السابق في معهد الآداب الشرقيّة

(جامعة القدّيس يوسف – بيروت – الخميس ٨ آذار ٢٠١٢)

في أمسيتنا هذه، يحضرني قولُ منصورٍ النمري :

فَإن يك أفْنَتْه اللّيالي فَأوشَكَت فإن له ذكرا سيفْني اللّيالِيا[١]

فللأستاذ أنطون ملحم (والأستاذ لغةً هو الماهر[٢]) في النفس **ألفُ ذكرى وذكرى**. فقد عرفتُه منذ التحقتُ بمعهد الآداب الشرقية لخمسٍ وأربعين سنةً خَلَت، لإعداد الإجازة التعليمية في اللغة العربية وآدابها. ولم أكُن أدري يومذاك أن هذه المعرفة ستَتطور وتَتعمق خلال سبع عشرة سنةً توليتُ فيها رئاسة فرع الآداب العربية (١٩٧٩-١٩٩٦)، فاثنتَي عشرة سنةً تولّيتُ فيها إدارة معهد الآداب الشرقية (١٩٩٦-٢٠٠٨). فتجاوزت علاقتي به الجانب الطالبي والإداري إلى صداقة عميقة، وعلاقة وطيدة لم يفْصم عراها إلاّ الأجل.

وقد عرف الأستاذ أنطون ملحم أن **يرتقي سلم المراتب** في الجامعة؛ فعندما أُلحق معهد الآداب الشرقية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية سنة ١٩٧٧، وتحول إلى فرعٍ للآداب العربية، عهد إليه بأمانة الدراسات العليا فيه، نظرا إلى خبرته بشؤون المعهد وشجونه؛ وعندما عاد فرع الآداب العربية معهدا للآداب الشرقية سنة ١٩٩٦، عهد إليه حصرا بأمانة الرسائل والأطاريح، وأمانة الصندوق، فأجاد العمل هنا وهناك، وأحسن **التكيّف مع كلّ وضعٍ مستجِدّ**، والتعامل مع تغير الوجوه والأنظمة، وتَقَبّلَ زميلاته اللواتي انضممن شيئًا فشيئًا إلى أمانة سر معهد الآداب الشرقية خَير تقبل.

---

* مدير معهد الآداب الشرقية الأسبق.

(١) ابن قُتيبة، **عيون الأخبار**، ٣/٦٣.

(٢) الخَفاجي، **شفاء الغليل**، ١٣.

وامتاز الأستاذ أنطون ملحم **بعلاقاته الطيّبة** بزملائه موظّفي الجامعة، وبالطلبة على اختلاف مشاربهم، سواء أكانوا من لبنان أم من الدول العربية، وبالأساتذة، والمدراء، والعمداء، ورؤساء الجامعة. فهو قريب منهم، يخاطب كلّ فريق حسبما تقتضيه الحال؛ فهو آخذٌ بناصية الجِد في موقف الجِد، حاضر النكتة دائما. وهو جاهز لخدمة الطلبة والأساتذة، وتلبية ما تقتضيه منه الإدارة. وهو في ذلك كلّه يبذل جهده لتجاوز المشكلات العارِضة، ولا يعظّم الأمور، ولا يحملها أكثر مما تَحتمل.

لقد كان لمعهد الآداب الشرقية كبير فضلٍ على المتخرجين فيه، ولا سيما من تبوأ منهم مناصب عالية في لبنان والدول العربية. ولكن الأستاذ أنطون ملحم كان من القلّة القليلة التي لم تَعرف للمعهد حقّ قدره فَحسب، بل كان لها **فضلٌ على المعهد** أيضا. وحسبي أن أستَذكر في هذه العجالة إسهامه في استمرار المعهد في أثناء الحرب اللبنانية : فكم مرة رافق طلبة المعهد للعبور من غربي بيروت إلى شرقيها، فللعودة من شرقي بيروت إلى غربيها، حتّى قال له رئيس الجامعة الأسبق الأب جان دوكروه ملاطفًا، وقد رآه عند خطّ التماس في بيروت، حسبما رواه لي الأستاذ أنطون ملحم مرارا: "إن متّ هنا فلن أُرسل إليك أزهارا". وكم مرةً عبر الخط الفاصل عند عقدنا إحدى دورات الدراسات العليا في الجامعة الأميركية ببيروت، أو لمعاونتي عندما أستقبل الطلبة في فندق الكارلتون. وكم مرةً تحدى مخاطر القَصف، وحواجز التفتيش والتشليح والخطف، ليسهم في دورات الدراسات العليا التي عقدت في الأردن.

لقد كان يحلو لبعضنا أن يقول: "أنطون ملحم هو ذاكرةُ المعهد"، يعني بذلك أنّه اختزن في ذاكرته القوية شؤونًا كثيرة تَختص بأوضاع الطلبة وأعمال الإدارة؛ ولكنّه **ذاكرة** المعهد أيضا لأنّه منذ ما يزيد على نصف قَرنٍ، صفحةٌ مشرقة من تاريخه الحافل بأزهى الوقائع وَأمضّها.

أيها الحفل الكريم،

إن ما تقدم هو بعض ما عهدتُه في صاحبِ الذّكرى، من خلال مرافقته لي تسعا وعشرين سنة في إدارة معهد الآداب الشرقية. أما صداقتنا فمن باب الخصوصية، ولن أُثْقِلَ عليكم بعرض ما للفقيد في دخيلة نفسي، ولكن حسبي أن أُشير الى خُلّة واحدة خَبرتُها فيه، وخَصني بها كما خص سواي، وعبر عنها الشاعر بأجملَ مما أستطيع التعبير عنه، فقال:

فَتًى ليس لابنِ العمِّ كالذّئبِ إن رأى بِصاحبِه يومـًا دمـًا فَـهو آكـلُه[٣]

أعني بهذه الخُلة **الوفاء**: الوفاء لمعهد الآداب الشرقية، ولمسؤولين وعاملين فيه، والوفاء لآباء يسوعيين محضهم ثقته، والوفاء لأصدقائه، والوفاء لي شخصيا. فأناأعتَرِف بأنّي لم أستَطع أن أستغني عن خدمات الأستاذ أنطون ملحم في المعهد بعد بلوغه السن القانونية، لِما له من فضلٍ على المؤسسة، ولِما كان بيننا من أُخوة ومودة. وأعلَمه قد بادلني هذا الشعور: فبعدما انتهت مهماتي الإدارية في المعهد، وبعد أن غادر رِحابه، ظَل يتردد علي أيام الأربعاء، فنتبادل الأحاديث، ثم يرافقني بخطاه الوئيدة المتثاقلة يوما بعد يومٍ، الى قاعة الدرس في الطبعة الرابعة.

وحسبي أيضا في الختام، أن أستعير بعض ما خطّه قلَم أحد المترسلين القُدماء في وصف **الصديق**، لأعبر عما اتّصفت به **أُخوّة** الأستاذ أنطون ملحم لي: "أخٌ كريم الأُخُوة، كامل المروة، إذا غبتَ خَلَفَك، وإذا حضرتَ كَنَفَك، وإن لُقي صديقَك استزاده لك من المودة، وإن لُقي عدوك كَف عنْكَ غرب العادية، وإذا رأيتَه ابتهجت، وإذا بالثَّنَّتَه استرحت"[٤].

فهذا شيء مما كان عليه أنطون ملحم في عمله، وفي صداقته وأُخوته، وهذا شيء مما سيحفظه له معهد الآداب الشرقية، وسيتذكّره به أصدقاؤه وعارفوه، حتّى يأتي اللـه أمرا كان مقْضيا.

- -

(٣) أبو حيان التوحيدي،**الصداقة والصديق**، ٤١.

(٤) أبو حيان التوحيدي، **م.ن.**، ١٠٤.